لو كنت وزيراً للمعارف!

حديث مع الدكتور أحمد فريد رفاعي

حين تحدث الأستاذ الدكتور أحمد فريد رفاعي في موضوع القراءة والقراءات ـ وكان ذلك في عدد مايو من « للعرفة » ، وحين أخذ يخلق وزارة المعارف ليحاسبها على ما يراه عيوب الماضي وعيوب الحاضر ـ أردنا أن نتقدم الموقف ، فسألناه : ماذا كان يفعل لو أنه أصبح وزيراً للمعارف؟..

ونحسب أن هذا السؤال قد خلق أكثر مما أملنا أن يخلق ، وفي هذه الإجابة المستفيضة عليه من صديقنا الدكتور ما يغني عن التعقيب بكلمة ثناء . . ؟

المحرر

قال الدكتور :

وهكذا.. أنتم معشر الكتاب! تدخلون على قلوبنا القلقة التي جعلتها أرزاء الحاضر مطمئنة إلى ما تعانيه من يأس وقنوط ، وعلى حصاننا وعقولنا التي جعلتنا في عصمة عن الناس ، وفي معزل عن الحياة وزخرفها ، غير حافلين بقالها وقيلها ، وصخبها وضجيجها .

وهكذا أنتم معشر الكتاب ! تتسللون في خفية إلى ما في النفوس البشرية من أحلام وأطماع ، ومن شهوات وآمال .. ما زالت جائعة في تأمة وهدأة ، حتى تجرونها في لين وهوادة ، وتعطلون أصحابها في رشاقة ولباقة ، وتحركون دفائنها بمسول الأماني ، وخلب الرغائب ... وهكذا أنتم معشر الكتاب تخلقون من الحبة قبة ، ومن القطرة دجنة سحاب غزير ماؤه ، وابل سيله ، فتطلعون علينا يوماً بمختلف الموضوعات التي هي أقرب إلى الخيال ، وإمتاع النفس ، وإشباع البطن ، منها إلى الواقع ؛ وتطلعون يوماً آخر بما تنحتونه من أفئدتكم ، وعصارة قلوبكم ، ومتدفق أخيلتكم ، ودفين رغباتكم ... ولعلكم على حق في ركونكم إلى الخيال وإمتاع النفس في هذا العصر ـ عصر الخيال وإقفار النفس ـ وأنتم على حق أيضاً حين تعيشون في جو التمنى ، وتحت ظلال دولة « لو كنت ! » .

* * *

يظهر أنك يا صديقي مفلس إلى السلطة ، وإلى الحول والطول ، وإلى تصريف الأمور ، لأنك تعيش في جو من الحول والطول ، وما وراء الحول والطول ، وفي عهد من تصريف الأمور يمشي على أرجل غير أرجلك ، وبعقول ليست من متفجرك ، ولا في مستوى عقولكم معشر الكتاب .

ولماذا لا تسألني عما أفعله لو كنت غنياً ؟ إنه ليخيل إلى أنك في أول الشهر ! وأن جيبك مترع بالمال ، ملىء بالنقود ! فأنت لا تطلب المال ، ولا تفكر في المال ، وأنت في عصر يشكو الناس فيه قلة المال ، وصفر الأيدي من المال ؛ وقد كان يكون من مصلحتك ـ ولاسيما في

هذه الأزمة الطاحنة التى أكلت الزرع والضرع ـ لو جئتنى فى آخر الشهر وعللتنى بسبحة من الخيال ، ولذائذ سوانح الحياة ، فسألتنى : ماذا أفعل لو كنت غنياً ؟!

ولست أدرى لماذا لم تسألنى عما أفعله لو كنت صحفياً ؟.. أستغفر الله ، بل لو كنت صاحب صحيفة ، فأنا أعلم لماذا لم تسألنى عما كرهته نفسك وسئمته شهوتك لنفرتك مما تعانيه الصحافة.

ثم لماذا لم تسألنى عما هو معقول ، وعما يعتبر الطريق السلطانى المعبد للوزارة ، أعنى بذلك .. ماذا كنت أفعله لو كنت نائباً ، ولكن يخيل إلى أنك قد نفرت من النيابة والنواب ، وسئمت من التغيير والتبديل ، وسئمت من التطاحن والتدابر ، وسئمت من التقاتل والتناقر... ولسنا نتكلم فى السياسة فى عهد لا تستحب فيه السياسة ، وإنما هو كلام فى كلام ، فى عصر يتدفق فيه الكلام ، ويعيش فيه الناس من الكلام.

على أنى سأحدثك حديثاً عاماً ، فلا تنتظر منى كلاماً عن خيبة الآمال من فشل التعليم فى مصر ، ولا تنتظر منى انتقاداً لنتائج الامتحانات ، ولا تنتظر منى تعليقاً على لجنة التحقيق المشكلة أخيراً ، ولا تنتظر منى بحثاً فى فوضى التعليم الأهلى والحكومى معاً ، ثم لى رجاء متواضع مثلى ، وهو أن تأخذ حديثى على علاته ، وهو حديث رجل اشتغل فى الادارة ردحاً غير قليل ، وسلخ عشرين عاماً من عمره موظفاً ... وحديث رجل ربما درس الناس واتصل بالصحافة عن قرب أو بعد ، وربما اتصل بالأدب والأدباء عن قرب أو بعد أيضاً .

أريد بذلك أنى لا أزال فى إسار من الخوف من جمهرة الموظفين ؛ فلا جرأة عندى لمساس ما يتقدسونه من مرتبات ضخمة مهما ناءت بها كواهل الأمة ، ومهما حالت بين الأمة وبين بذلها بسخاء على التعليم والتربية وإفادة الناس ، ومن كثرة فى عددهم أكثر مما تتطلبه طبيعة أعمالهم ، فلا أدعو إلى ما دعا إليه «جدس» فى انجلترا من نقل أو تبديل ، ومن تحوير أو تعديل .

وأريد أن أقول لك إنى فى رق من الوظائف ، ومن ملق الموظفين إلى رؤسائهم ؛ فما بالك بالوزراء وأشباه الوزراء ؟ وأنت تعلم أن الملق ، والمراء ، والنفاق ، والدهان ، وما إلى ذلك كله ، إنما هى ذرائع الرق ، وسلم التقدم ، ودرجات الارتقاء ، والرضاء ، والحبو بالمال والجاه.

وأريد أن أقول إنى صلتى بالأدباء والمؤلفين ، وبمن يتصل بالأدباء والمؤلفين من كتاب ومحميين فيها عقلة للسانى ، وحبسة لجنانى ؛ فلا تحدث إليك فى صدق وصراحة عن طريقة وزارة المعارف فى تقرير الكتب ، ونظام البرامج ، والاستكانة إلى سياسة اللجان ، وإلى نوم اللجان ، وهجيع أصحاب اللجان .

على أنا ما دمنا نتكلم فى الخيال ، وعلى أجنحة الخيال ، وما دمنا نعيش فى عصر الخيال لا عصر الأعمال ، فأظن أن لا غضاضة على هؤلاء وهؤلاء ، من أن نتكلم .. ونتكلم فقط...

لو كنت وزيراً يعتمد فى تصريف أموره على ملهمات شعبه ، ورغبات أمته ، لاخترت أن أكون وزيراً للمعارف، ثم لصارحت النواب ومنتخبى النواب أنى سأثور على نظم وزارة المعارف وسياسة التعليم فى مصر ثورة تحطيم وإبادة ... ولقلبت الحال غير الحال رأساً على عقب ... وإن شئت دقة فى التعبير ، ودقة فى استعمال الألفاظ ، ودقة فى إجراء المعانى فيما خلقت له ، ودقة فى احترام المنطق والعقل الانسانى ، لقلت لك : إنى لا أثور ، لأن ما هو موجود ليس بنظام فينار عليه ، وإنما أحاول ، وأحاول فقط رد الأمور إلى نصابها، وجرى الأمور فى مجاريها ، وإيجاد النظام بديلا من الفوضى ، وإحلال ما هو معقول ومنطق فى ما فرضته الشهوة ، وأوجدته الأغراض .

إن الوطن لا يزال فى خطر ، وإنه فى خطر ليس بعده خطر ... إنه فى أمية ، ولا أقول فى جهالة مطبقة، إنه فى حياة اتكالية مصدرها تلك السموم الاتكالية التى تنخر فى عظامنا ، والتى تفسد فينا دماء الحياة ، والتى تتكاثف ظلماتها ودياجيرها أمام أعيننا ، فترتطم وتتعثر وتكبو .. إنه فى إفلاس روحى ، وفى إفلاس سياسى ، وفى إفلاس اقتصادى ، وفى إفلاس اجتماعى ، وفى إفلاس خلقى ؛ فلا رابط ولا حائط ، ولا شادى ولا هادى ، ولعل مصدر ذلك كله هو السياسة التعليمية التى ما زلنا نتخبط فيها ، والتى قضت على كل شىء فى قوانا ، فهل يا ترى من منقذ ، وهل يا ترى من سبيل إلى أن نعود أحياء ، أو أشباه أحياء ؟

اما أولا ، فان فى وزارة المعارف جيشاً عرمرماً من الموظفين الكتابيين ، فلماذا لا ينقل هؤلاء إلى غير هذه الوزارة، ويستبدلون بفريق من حملة الشهادة العالية، أو ثلاثة أرباع المتعلمين أو أنصاف المتعلمين ، لكى يعهد إليهم ـ حين إلزامية التعليم ونشره نشراً حقيقياً ، ونشراً نظامياً ، ونشراً بيداجوجياً ـ بأداء ذلك الواجب المقدس فى الدول الحية التى تقدس أسباب الحياة الحقيقية .

سيقال بأن هؤلاء ينقصهم فن « البيداجوجيا » وما يتصل به من علوم التربية ، و « السيكولوجى » والأخلاق ، وما إلى ذلك مما يتصل بالتعليم وبطرق التعليم .. وأنا لا أحب أن أتساءل عن سر إلغاء مدرسة المعلمين ، وإنما أتساءل عما يحول بين الوزارة وبين إنشاء مدارس ليلية لتلك الدروس التكميلية لهذه الآلاف المؤلفة من الموظفين الذين أضحوا عبئاً فادحاً لا مبرر له بسبب قلة الأعمال لديهم ، وكثرة القائمين بها من الرؤساء وغير الرؤساء ؛ حتى إن الخطاب الواحد يمر تقريبا على عشرة أيدى بطريقة ميكانيكية قديمة ، لا يقبلها العقل السديد ، ولا تسوغها طبيعة الأشياء ؛ فمن كاتب الصادر وآخر للوارد ، إلى كاتب يعرض الخطاب على شبه رئيس ، ثم على رئيس فرقة ، فعلى رئيس قلم ، فوكيل إدارة ، فمدير إدارة ، فمراقب ، إلى أن يهبط الوحى الميكانيكى الذى يجيده صغار الموظفين .. ثم يعود كساقية جحا فى نفس المراحل، وبنفس الطرق الميكانيكية الطويلة المدى ، والمجدبة الأثر ، بلا روح ولا حياة

وهكذا مما فيه مضيعة للوقت وللجهود ، ولحياة الرجال ، ولاضاعة الأموال ، بينما يمكن ، ويمكن جداً إنجاز نصف الأعمال أو أكثرها بالتليفون ، كما هو الحال فى ألمانيا ، وفى إنجلترا ، وفى غيرها .

ما علينا . . إنما أتساءل عما يحول بين إذاعة الفنون التعليمية بين هؤلاء جميعا ، حتى نعد منهم عدة كافية ، أو عدة ضرورة — إن شئت دقة فى القول — لدرء خطر الأمية . فاذا قلت : وأين الامكنة ؟ أجبتك فى التو واللحظة بأنى لا أستبعد أبداً ، أن أعيان البلاد الذين يشتغلون فيما لا يفيد الوطن ولا يعمل على إنقاذه واضطراد تقدمه يمكن استغلالهم ، أستغفر الله ، بل استنهاض عزماتهم إلى التبرع بمنزل أو أكثر فى مدنهم لهذا السبيل ، بدلا من إقامة السرادقات والزينات ، ونصب أعلام الأفراح والليالى الملاح .

بل لماذا لا تستخدم دور التعليم لدروس ليلية كما هو الحال فى مدرسة التجارة العليا ؟

بل لماذا لا تقدم مجالس المديريات أو المجالس المحلية أو المجالس القروية التى تبذل أموالها فى إزالة المنازل وخط شارع جديد أو متنزه جديد أو مشروع إنارة أو ما إلى ذلك من ضروب الكماليات التى مهما قلت عن أهميتها وإنها بعيدة عن إفادة عمرو ونكبة خالد لغرض سياسى أو شهرة محلية أو فكرة حزبية ، فانك لا تستطيع أن تقنعنى بأنها تربو فى نفعها عن إنشاء مدرسة وتعليم جهال وتثقيف أميين وإنارة عقول وترقية أفهام وتعمير قلوب وأذهان .

تعوزنا الارادة والعزيمة ، ثم تعوزنا الفكرة الصائبة والرأى المختمر المبيت لا الجدل ولا الغمار ولا الحزبى .

ثم عندك البرامج التعليمية ، وهذه مسائل حيوية ومحلية ، وسأحدثك عن ناحية ضئيلة منها .

أريد أن أقول : إن أولاد المزارعين الذين يحتاج إليهم الحقل والزرع ، يجب أن لا أخلق منهم عالة وكما مهملا وعبئا على الأهلين . . إن سياستى معهم ستكون سياسة إقليمية ، أى أنى إلى جانب تعليمهم ما هو أولى ، وتثقيفهم بالثقافة العامة الأولية — من تعلم القراءة والكتابة والحساب ودروس الأشياء وما يتصل بها فى ساعات قليلة من النهار — أعلمهم أيضا العلم الاقليمى الذى يحتاجون إليه ، فيأخذون بسائط علوم الفلاحة والبساتين والزراعة وصناعة الأسمدة والجبن والزبدة ، وفى إقليم آخر تكون تربته مواتية للخضروات والفواكه ، أعلمهم تلك الزراعات وما يتصل بها من صناعة المربات وحفظ الفواكه وتصريف الخضروات وغير ذلك ، وفى إقليم ثالث يتمشى مع صناعة النسيج أو النجارة أو الدباغة أو غير ذلك ، أتمشى فى سياستى التعليمية على هذا الأساس .

ليس معنى ذلك أنى أبالغ كثيراً فى سياسة قدماء المصريين التعليمية ، أى أن يكون ابن الحائك حائكا ، وابن المزارع مزارعا ، وابن تاجر الماشية تاجر ماشية وهكذا ؛ وإنما أريد أن أكون مقتصداً

ملبياً طلبات الأهلين وحشد أبناء الأهلين فى مدرسة الحياة الصغيرة لأن يكونوا رجالا عاملين فى مدرسة الحياة الحقيقية الكبرى، ولن أحظر على ذوى المواهب ـ من أولاد هؤلاء وهؤلاء ـ أن يتموا دراستهم فى الطريق النظامى المعبد ؛ مادامت توانيهم ظروفهم وظروف أهليهم وظروف سياسة الدولة المسؤولة عن نشئها، وتخريج رجالاتها، وتعليم أبنائها وإعداد العدة القوية لمستقبل حياتها.

ولكن المسألة ـ كما قلت لك ـ هى مسألة إرادة مرهفة وعزيمة نافذة ومضاء حازم مسدد.

ثم أريد أن أقص عليك قصة من واقع الحياة، لتعلم أن الارادة هى كل شىء، وأنها مصدر كل شىء.

أريد أن أحدثك عن رجل زنجى لم يكن بوزير، وإنما كان من عامة الشعب أحس إحساسهم، وتألم بتبارحهم، ذلك هو « بوكر واشنجطن » الزنجى الأمريكى، الذى بعث الحياة فى نفوس أبناء جلدته، وبعثها قوية ناضجة، وبعثها صلبة مكافحة حتى ساووا بينهم وبين البيض . . .

أتعرف ماذا فعل ؟ إنه لم يأبه بالزيارات، ولم يحفل بالخطابات ؛ ولم يجنح إلى سياسة الاعلانات، بل أنشأ مدارس، وأنشأها من لا شىء.

إنه اجتمع فى الخيام، ثم كلف تلاميذه السود الذين علمهم صناعة الآجر، وعلم بعضهم النجارة والزراعة، وعلم الآخرين الحدادة، وصناعة ذلك كله، ثم تقدم صانعو الآجر مع زملائهم لصناعة ما يكفى إقامة مدرسة، واحتطب الآخرون من الغابات أخشاباً صنعها الآخرون أبواباً ونوافذ ... إلى أن شيدت الدار من نفس الطلبة فى سواغ فراغهم من الدرس والتحصيل، ثم لم يفته أن يعلمهم صناعة الجبن والزبدة، وما إلى ذلك، حتى نافس السود البيض فى تلك الصناعات ؛ وحتى احترمت الحكومة واحترم الأهلون هذه المدارس ؛ وكثر لها الأنصار والمؤيدون، واستخدم طلابها أصحاب الأعمال والمتاجر، وصارت نموذجاً حياً واقعياً فى صورة مصغرة لمدرسة الحياة الكبرى، لأنها أعدت من هؤلاء وهؤلاء رجالا حقيقيين يضطلعون بأعباء الحياة الحقيقية.

أرأيت كيف يستطيع الرجل الفذ، وتستطيع الارادة الفذة، وتستطيع الروح الفذة إنتاج العمل الحيوى الفذ ؟ على أنى أود أن أترك التعليم الأولى الابتدائى، وهو جد هام، بل هو العمود الفقرى للبلاد، ولانماء ثروتها، ولضمان الأيدى العاملة فى ربوعها وبين ظهرانيها؛ وأود أن أتنقل بك إلى عدم عنايتنا بالتربية الاستقلالية فى ربوع مدارسنا عامة؛ وإلى عدم استقرار سياستنا التعليمية فى برامجها ردحاً كافياً من الزمن، وإلى قلة مدارسنا الأهلية، وإلى قلة مدارسنا الابتدائية والثانوية والعالية ؛ وأود ـ قبل هذا وذاك ـ أن أحدثك عن افتقارنا الجدى إلى التعليم الجامعى، كما أود أن أحدثك عن افتقارنا إلى نظام المكتبات المتنقلة التى تنشر العلم فى يسر وسهولة بين الأهلين عامة، وفقراء الشعب خاصة.

ويجب أن تعلم أن فقراء الشعب هم غالبيته، ومنهم النوابغ والعباقرة، ومنهم جند الوطن البواسل، ومنهم ناخبو النواب، ومنهم بناة الأوطان ؛ كما أود أن أحدثك عن ضرورة

التقى مع حاجات البلاد ومطالبها ، وعدد الكفاح والمنافسة بين مصر وجيرانها ، وعدم الاعتماد فى ثروتها على مصدر واحد قد يصيبه الكساد ، أو يقعد به ركود الحال وسوء الحظ ؛ وضرورة إنماء موارد جديدة لثروات البلاد ، حتى يخرج المال المصرى من جيب المصرى ليدخل فى جيب المصرى ، ولا يكون ذلك إلا بإعداد رجال إخصائيين فى فروع شتى من الصناعات ومختلف المهن ، بمعنى أن تكون لنا سياسة تعليمية صناعية وزراعية واقتصادية معينة .

ثم أريد أن أحدثك عما يجب أن تكون عليه سياسة الكتب ؛ وسياسة المنافسة التأليفية ، وسياسة تعليم اللغة العربية ، وسياسة تعليم اللغات الأوربية ، وبث المقروءات التاريخية لأصحاب الشخصيات البارزة ، ولمختلف الموضوعات الحيوية ، التى تشحذ النفوس وتصقلها ، وتبعث فيها الهمة والمنافسة والاضطلاع بأعباء الحياة .

ثم أريد أن أحدثك عن أثر السينما فى التعليم ، وعن فوائد تعليم روضة الأطفال ، وفوائد التعليم فى الهواء الطلق .

وأريد أن أحدثك عن أثر ذلك كله فى إيجاد أمة متعلمة متجانسة الميول والأهواء تساعد على إيجاد كتلة وطنية ، ووحدة فى الجبهة ، والكفاح ، والتساند ، والتآزر ، لاتفاق المشارب والتئام وجهات النظر ، وفى ذلك إفادة للجميع ، كما فيه إفادة لأصحاب الصحف التى ستقرأ بالملايين ، كما هو الحال فى الأمم التى تقرأ وتكتب ، والتى تنشر من صحافتها الملايين ، ومن مؤلفاتها مئات الالاف ؛ والتى تجد فيها رأياً عاماً هو مصدر حياتها وقوتها ، ومصدر رهبتها وحرمتها . فماذا أبدأ لك ؟

يخيل إلى أن كل ناحية من تلك النواحى التى حدثتك عنها تتطلب بحثاً خاصا ، وإنى أتواضع معك كثيراً إذا ما قلت لك ذلك ، لأنك جد عالم أن كل ناحية من تلك النواحى الهامة الخطيرة تتطلب كتابا ومؤلفا قائما بذاته ، إذن فلا أقصد معك ، ولا أكتف بالتحدث إليك عن التعليم الجامعى ، وضرورة نشره فى المدن الكبرى ، إذ أن الوطن يفتقر إليه بقدر افتقاره إلى التعليم الالزامى .

وإنى أقترح عليك أن تفتتح هذا الموضوع على مصراعيه ، وتجعله باب استفتاء لجمهرة الباحثين فتسألهم عما يقدمونه : هل التعليم الجامعى ، أم نشر التعليم الالزامى ؟

وليكن موضوعك فى تفضيل وضع سياسة تعليمية جامعية ، ووضع سياسة تعليمية أولية وبأيهما نبتدىء ، وأيهما ننفذ ؟

ولست أشك أنك تحزن كثيراً إذا ما رأيت القطر المصرى لا توجد فيه إلا مدرسة واحدة للحقوق ، والطب ، والهندسة ، والزراعة العليا ، والتجارة العليا وهكذا ، ولست أشك أنك تأسف لتلك الأموال المهدرة التى يصرفها الأغنياء منا على أبنائهم فى أوروبا ، ولست أشك أنك جد آسف على اكتفاء جمهرة متعلمينا بالتعليم الثانوى أو التجارى أو المتوسط ، وترقب أكثرهم ـ

إن لم تقل ترقيهم جميعا ـ لوظيفة من وظائف الحكومة يتبلغون منها الفتات الضئيل .

على أن موضوع السياسة الجامعية يتطلب هو الآخر بحثا مستفيضا متشعب النواحي ، إذن فلنقتصد فيه ، ولنتحدث عما يعتبر روحه ، أو النواة الأساسية فى ثمره وإذاعته .

لنتحدث إذن عن معنى التعليم الجامعى ، هل هو شحن الطالب بما فى بطون المؤلفات والمطولات من الكتب ومسهب المعلومات ؟ بمعنى أن طالب القانون يقف على ما يقول دالوز وغيره من المراجع كقانون نابليون ، والقانون الرومانى ، وهلم جرا ، ويقف طالب الآداب والهندسة والزراعة على مجموعة المعلومات المطولة فى فنونهم ومواد دراستهم ؟

أظن أن ذلك نظام عتيق يخرج من الطلبة عشرات بلا فائدة ، كتلك الكتب الفارغة التى تزاد فى نسخ الكتب البائرة ؛ وأظن أن دراسة الجامعات تقوم بتوجيه الأذهان إلى تفهم الروح العلمية ، وابتكار النظريات بعد درس الموجود منها ، وأظن أن المهم والأساس فى التعليم الجامعى هو إحياء وسائل البحث الحر ، وتوجيهها بين الطالب والأستاذ فى الناحية الحرة الطليقة ، تلك الناحية المثمرة والمكونة للشخصيات الانتاجية المثمرة .

ولا يكون ذلك إلا فى إطلاق العنان للفكر الانسانى ليكون حراً طليقا .

إذن فلأحدثك عن هذا المدى وتلك الناحية ، وخير لى ولك وللقراء أن أحدثك الآن فقط عن آراء الأساتذة الجهابذ : مكريد ، والدكتور بارلو ، والسير آرثر كيث ، والأستاذ أرنست بارکر ، والأستاذ صلس ، والأستاذ إليوت سمث ، والأستاذ سدنى هكس ، والأستاذ باردنر ، عن ضرورة تقديس حرية البحث فى التعليم الجامعى ، ومدى الحرية الفكرية وما لها من حرمة وتقديس فى التعليم الجامعى ، وأنها بمثابة الروح والقلب واللباب .

ولكن ذلك يتطلب هو الآخر بحثا مستفيضا ، ومؤلفا مسهبا .

إذن فلأحدثك عن رأى رئيس كلية الملك بلندن الأستاذ أرنست بارکر ، وأعتقد أن ذلك يصور لك ـ تصويراً دقيقا ـ المعنى السامى الذى يجب أن يهدينا سواء السبيل فى تعليمنا الجامعى ، والذى يجب أن يكون شعارنا وهدينا .

يقول المستر أرنست بارکر ما يأتى ، والترجمة ليست لى ، وإنما لصديق الأستاذ فؤاد صروف :

« إلى أى مدى يستطيع الرأى العام فى دولة من الدول ـ كما يعبر عنه مجلسها التشريعى ـ أن يسيطر على التعليم وبرامج الدروس فى المدارس والجامعات ؟ يتراءى لى أنه قد يحق لدولة من الدول أن تسيطر على برنامج العلوم التى تعلم فى مدارسها ، ولكن لا يحق لها فى حال من الأحوال أن تسيطر على ما يعلم فى هذا العلم أو ذاك ، والسبب بسيط المثال : الغاية من التعليم تنبيه القوى وتدريبها ، وما من معلم يستطيع أن ينبه عقول تلاميذه ويدربها إلا إذا

استعمل عقله حراً من القيود ، فاذا علم المعلم ما يؤمر بتعليمه كان هو وتلاميذه كالآلة ، هو ينقل ما قيل له أن ينقله ، وهم يقبلونه من غير بحث أو مناقشة ، وكان العلم والتعليم سطحيين ؛ ومتى قيد المعلم كذلك فقد احترامه لنفسه ، وما له من المقام والكرامة فى نفوس تلاميذه ، وإذا فقد مقامه فى نفوسهم عجز عن التأثير فى عقولهم . التعليم يتوقف على اشتراك المعلم والتلميذ فى البحث اشتراكا حراً ، هو يعلم ما يليه عليه الفكر والبحث ، وهم ينقادون إليه لما فى تدريبه من قوة ، فيتمكن من قيادتهم فى سبل البحث والتنقيب ، ولا يستطيع أحد أن يقود غيره إذا لم يكن كلامه خارجا من أعماق نفسه .

إن روح الحرية الذى أوجد المجالس النيابية ـ وهو روح حياتها ـ يجب أن يمنعها من القضاء على روح الحرية الذى نفخ فى معاهد التعليم وصار روح حياتها أبداً .

إننا لا نستطيع أن نملى على مجلس تشريعى مستقل ما يجب أن يسنه من القوانين ؛ كذلك لا نستطيع أن نعين لجامعة من الجامعات ما يجب أن يعلم فيها . . . الرأى العام قوة عظيمة ، ولكن لا نستطيع تكوين رأى عام ناضج من غير مناقشة ، ولا مناقشة صحيحة من غير تعليم صحيح حر ، فاذا حاول مجلس من المجالس التشريعية أن يقضى على حرية التعليم قضى على نفسه ، لأنه قائم على حرية القول .

وإذا سعى الرأى العام لطمس حرية الفكر والقول ، طمس صوته القوى ، لأن الرأى العام ينشأ عن حرية التفكير والقول ، وما من دولة ديموقراطية تقدر أن تقضى على الحرية ، أو تخمد حرية الفكر من غير أن تقضى على ذاتها وتخمد شعلة حياتها ... » .

***

تلك هى جملة الآراء التى انتهى إليها « أرنست باركر » ، وليس أدل على سدادها من صواب ما فيها من نظرات ، وروعة ما فيها من وجوه ...

فهل تريد أن أسهب لك فى تفصيلها ، وأطنب لك فى تحقيقها وتمحيصها ، وتسجيل ما يزدحم عليها من ميزات . . . هى باعث التوفيق للتعليم الجامعى ، والتربية الجامعية ، بل التربية الشعبية على السواء ؟

إن هذا البحث يا صاحبى يدعو هو الآخر إلى مجلد ضخم ، ويدعو لتكوين هذا المجلد الضخم إلى وفرة أناة ، وكثرة اتئاد ، وهدوء أعصاب ، ورحيب وقت .

وهذا كله يدعو إلى تخصيص جزء كامل من « المعرفة » حتى نبلغ الهدف ، ونبلغ الشأو .

فلا أكتفى بما أدليت ، ولا أقف عند ما أحصيت ، ولكن ما أحصيته وأدليت به حافزاً لمن يريد الاصلاح ، أو ينشد الاصلاح ، أو يملك بين قبضتيه أسباب « الحل والعقد » كما تتحدث إلينا لغة الدواوين أنقذنا الله من سياسة الدواوين وجمود الدواوين ... وإلى الملتقى ؟

ع ...